٣ — بين الموسيقى الشرقية والغربية

بقلم مدحت عاصم

الانغام

يضم جمعا من الخلان حفل يستمعون فيه الى مغنى عذب أو موسيقى شجية ، وقد ملكت اليابهم النغمة ، واستأثرت بمشاعرهم المثانى والمثالث ، ولا تتعدى معرفتهم باللحن أو المعزوفة عن أن اسمها كذا ، وأن مؤلفها هو فلان ، ولكن احدهم قد يهتف فى نشوة من الطرب « ما أحلى هذه الترجيعة ، البياتى ، أوما أجمل تلك الحركة ، السيكاه » ! : فينظر اليه رفقاؤه نظرة تقدير واعجاب ، ويعتدل هو فى جلسته مزهواً مستزيداً من اشاراته وايماماته ، كيف لا وقد وفق لسر من أسرار الانغام وسيرها ، وأطلع رفاقه على قدر علمه ومعرفته ! ولو عرف الرفاق أن القدرة على تعيين النغمة لمجرد سماعها ، إن أعوزها شيء من الخبرة بالمران ، فهى ليست من الخطر بالقدر الذى يتصورونه ، لاقتصدوا فى تقديرهم واعجابهم .

أما أنا ، فأذكر أنى وقعت فى صغرى الى جلسة ضمت جمعا من الوافدين فى ليلة من ليالى رمضان المكرم ، وقد اجتمعوا حول شيخ مقرىء يسمعهم طرفا من المولد ، وقد استولى عليهم الطرب الممزوج بالخشوع ، ولم يكد ينتهى حتى أسرعوا يكبرون ويمدحون الشيخ المقرىء وبراعته وصوته الحنون القوى . ثم تكلم أحدهم ، وكانت له عند الشيخ مكانة وله عليه دالة ، فطلب قصيدة « يانسيم الصبا » ، وأردف طلبه قائلا « والله ياسيدنا ، انى أحب نغمة الصبا هذه ، ولا أكاد أحبس الدمع عند سماعها » . فهمهم الشيخ ودمدم وأراد أن يرد الحق الى نصابه ويمنع الخطأ أن يروج فقال « يابنى هذه القصيدة من نغمة الحجاز » . وكأنه شعر بقدر الغيبة التى لحقت الطالب فاسرع بانشادها تعويضا له ، فكان هذا أول درس وعيته فى علم النغم ، وكنت بعدها كلما سمعت نغمة طبقتها على « يانسيم الصبا » ، فان وافقتها فهى حجاز ، وإن خالفتها فعلها عند القوم الراسخين فى العلم . ومن بعد « نسيم الصبا » عرفت أن مارش « عباس » من نغمة « النهاوند » وأن « ياطالع السعد » « رصد » ، وهكذا أصبحت أقيس كل ما أسمعه على ماعرفته ، وبذا أستطيع تعيين نوع النغمة .

غير أن علماء الانغام يرون أن ميزان الاذن قد لايعدل ، وأن هذه الطريقة الساذجة لاتصح أن تكون حجة علمية دقيقة يعتمدون عليها فى قوانينهم وأبحاثهم ، فهم لذلك يعمدون الى تحليل النغمات تحليلا صوتيا حسابيا ، ويفرقون بين درجات السلم الموسيقى بنسب مضبوطة ثابتة لايعتورها خلل ، ولا تعرض للاحداث والغير

وأرى هنا قبل أن أتحدث عن تقسيم النغم الشرقى والغربى أن أثبت التقاسيم العامة فى السلمين ليظهر جليا تركيب التقسيم فى السلم الشرقى وبساطته فى السلم الغربى .

١ — السلم الغربى (من اليمين الى اليسار تنازليا)

دو — سى — لا ديز — لا — صول ديز — صول — فا ديز — فا — مى — ري ديز — ري — دو ديز — دو

والمسافة بين كل هذه الاقسام متساوية فى السلم المقرب Tempéré وهو المستعمل فى العالم الغربى الآن وتساوى نصف مسافة كاملة $\frac{1}{12}$

٢ — السلم الشرقى

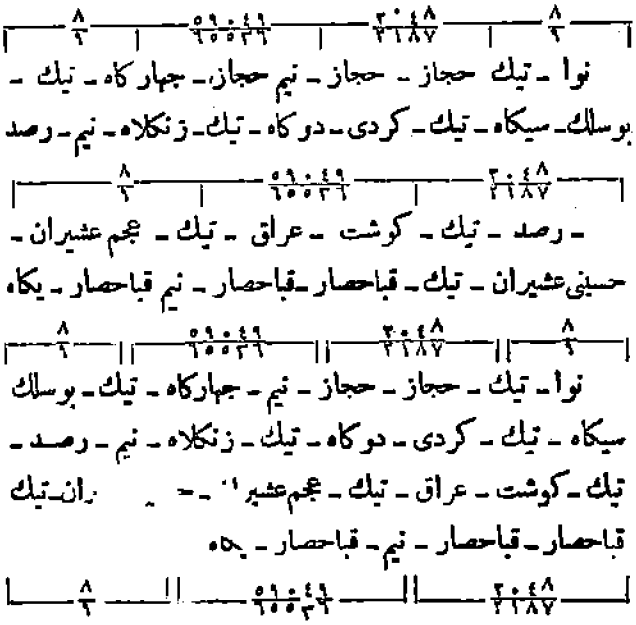

نوا — تيك حجاز — حجاز — نيم حجاز — جهاركاه — تيك — بوسلك — سيكاه — تيك — كردى — دوكاه — تيك — زنكلاه — نيم — رصد — رصد — تيك — كوشت — عراق — تيك — عجم عشيران — حسينى عشيران — تيك — قباحصار — قباحصار — نيم قباحصار — يكاه

نوا — تيك — حجاز — حجاز — نيم — جهاركاه — تيك — بوسلك — سيكاه — تيك — كردى — دوكاه — تيك — زنكلاه — نيم — رصد — تيك — كوشت — عراق — تيك — عجم عشير[illegible] — ران — تيك — قباحصار — قباحصار — نيم — قباحصار — يكاه

ويراعى فى تقسيم هذه المسافات ، النسب التى ذكرناها تحت باب السلم الموسيقى الشرقى فى عدد أسبق من الرسالة .

وقد رأى موسيقيو الغرب ان كل ما يستعملونه من الانغام ينحصر فى نوعين رئيسيين ، اطلقوا على احدهما اسم النغمة الكبرى Mode majeur والثانى اسم النغمة الصغرى Mode mineur وجعلوا الدرجة الاساسية للسلم الكبير Gamme majeur هى

دو والسلم الصغير لا . وينسبون اسم النغمة الاساسية فيقال نغمة دو الكبيرة Do Majéur ونغمة لا الصغرى La Mineur ولا باس من أن نوضح هنا نسب المسافات بين الدرجات فى سلمى النغمتين

النغمة الكبرى دو $\frac{٩}{٨}$ سى $\frac{١٠}{٩}$ لا $\frac{٩}{٨}$ صول $\frac{١٠}{٩}$ فا $\frac{١٦}{١٥}$ مى $\frac{٩}{٨}$ رى $\frac{٩}{٨}$ دو

النغمة الصغرى لا $\frac{٩}{٨}$ صول $\frac{١٠}{٩}$ فا $\frac{١٦}{١٥}$ مى $\frac{٩}{٨}$ رى $\frac{١٠}{٩}$ دو $\frac{٩}{٨}$ سى $\frac{٩}{٨}$ لا

وقد جعلوا شرطا فى كل لحن أن ينتهى بالدرجة الاساسية Tonique . ففى نغمة دو يجب أن تكون آخر درجة فى ختام اللحن هى دو وكذلك فى لا . كما أنهم أباحوا للملحن أن يختار أى درجة من درجات السلم الموسيقى لتكون درجة اساسية للحن مع مراعاة النسب المفروضة للنغمة المستعملة سواء أكانت الكبرى أم الصغرى ، ووجوب انتهاء اللحن بالدرجة الاساسية .

وقد رؤى بعد ذلك أن هناك نوعين من النغمة الصغرى احداهما تشابه النغمة فى صعودها هبوطها ، والأخرى يختلف السلم هبوطا عنه صعودا اذ يرى كون موقع الدرجة السادسة نصف مسافة فى الصعود ، وعند الهبوط تكون النسب بين الدرجات هى نفس نسب النغمة الكبرى وسميت النغمة الاولى بالصغرى المطربه Mineur Mélodique والثانية بالصغرى المتوافقة أو المتجانسة Min. Harmonique . كما فرضوا أن من الشروط اللازمة فى علم الانغام ان المسافة التى بين الدرجة السابعة والثامنة يجب ان يكون مقدارها نصف مسافة ، كاملة وسميت الدرجة السابعة فى السلم بالدرجة الحساسة Note Sensible — وان كنت لا ادرى مصدر هذه التسمية — واحسب ان علماء النغم انفسهم لا يستطيعون لذلك تفسيرا دقيقا .

هذا فى الموسيقى الغربية ، اما فى الموسيقى الشرقية فشد الله ازر المشتغلين بالانغام فيها ، ويسر لهم من امرها ماعسر ، فلا قاعدة عامة ، ولا نغمات معدودة محصورة يسهل على الفكر ادراكها وتحديدها . وانما هى نغمات تعد بالمئات ، ولكل نغمة قاعدتها الخاصة أو قل قواعدها فى ترتيب النسب لمسافاتها ودرجاتها . ولذا يستحيل علينا ان نجد عالما شرقيا ، مهما بلغ به العلم ، قد الم بكل هذه النغمات واحاط بها . وليس هذا يعنى ان كل النغمات فى الموسيقى الشرقية عسيرة المنال شاقة المنال ، بل ان فيها من الانغام مايستطيع الموسيقى العادى ان يلم بها بدون حاجة الى جهد او كبير عناء . بل إن من هذه النغمات مايجعل الموسيقى الغربية فى ياس قاتل لعدم بلوغها تلك المرتبة من دقة التقسيم وعذوبة التوقيع وحساسة الاذن

وفى الموسيقى الشرقية اختلاف عن بساطة التسمية للنغمات الغربية فقد قلنا فى النغمات ان النغمة الكبرى او الصغرى يصح ان تنتقلا على كل درجات السلم محتفظتين باسميهما مع نسبة اسم الدرجة التى تعتبر أساسية الى النغمة . اما فى الموسيقى الشرقية فلا يمكن حصر النغمات . ولنأخذ مثلا النغمات التى درجتها الاساسية الرصد ، وأولها نغمة الرصد ، ثم السوزناك والحجاز كار والنهاوند والنوا أثر والنكريز وطرزنوين والساز كار ، وهكذا الى حوالى الثلاثين نغمة . ، ولا يقتصر الامر على هذا . وينهج النهج الغربى عند اعتبار درجة اساسية اخرى غير الرصد للنغمة بل يزداد التعقيد ، فمثلا نغمة الحجاز كار ودرجتها الاساسية الرصد وسلمها الموسيقى كما يلى :

كردان $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ أوج حصار $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ نوا $\frac{٩}{٨}$ جهاركاه $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ سيكاه $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ زيركوله $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ رصد $\frac{٢٠٤٨}{٢٠١٨٧}$ $\times$ $\frac{٩}{٨}$

فلو اتخذنا درجة الدوكاه اساسا لهذه النغمة فان اسمها يتغير ويصبح مشهناز ، ولو اتخذنا نفس هذه النسب ايضا لدرجة اساسية هى الحسينى عشيران لتغير اسم النغمة وأصبح سوزول وباتخاذ درجة اساسية هى العراق يصبح اسم النغمة اوج آرا ، ويقول الراسخون فى علم الانغام الشرقية — ولسنا نعرض لقولهم الآن — ان هذا التركيب والتعقيد فى اختلاف اسماء الانغام وتنوعها مع تشابهها لهو عقدة فنية محبوكة ، والفخر كل الفخر لمن استطاع ان يلم من هذه الانغام باكثرها تقيدا واكثرها غرابة فى الاسم والتصوير ، ثم يعللون هذا أيضا بأن تلك الانغام وان تشابهت حقا فى ترتيب سلمها فان هناك اختلافا بسيطا فى سير النغم عند الصعود او الهبوط .

هذا أبسط مثل لنغمة واحدة فى انتقالها على ثلاث درجات مختلفة ، ولو اردنا ان نحصر عدد الانغام التى يمكن تكوينها على درجات السلم الشرقى وعددها اربع وعشرون . من النغمات التى درجتها الاساسية هى الرصد فقط لاحتجنا الى خبير حسابى ليستعين بعمليات التباديل على اجابتنا الى مارغب . ولما كان الغرض من هذا البحث هو التعرض بوجه عام الى الفروق الظاهرة بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية ، فانا نرجىء التكلم عن محاسن ومساوىء الموسيقى الشرقية الى أجل قريب .

مدحت عاصم